

كلاب وقضبان

كلما تأملت في الوضع السياسي القائم، تعود بي الذاكرة إلى صُورٍ من الماضي، صُورٍ من الأيام التي كنت فيها صبياً، أعب مع أترابي في زواريب الضاحية الجنوبية لبيروت، وكانت بعض الكلاب الفالطة تعترض تنقلاتنا بين البساتين، فنلجأ إلى رشقها بالحجارة الصغيرة لتهرب من دربنا، ونتمكّن من متابعة نزهتنا، ولكنّ بعضها الشرس كان يواجهنا أحياناً ويلحقنا أحياناً أخرى، لذا لم يسلم بعضنا من العضّ، وكان لا بدّ من إيجاد وسيلة للدفاع القريب فتردّنا بقضبان طويلة لضرب الكلب أثناء انقضاضه علينا، وسرعان ما اكتشفنا بأن الكلب يكتفي بمصارعة القضيب وعضّه عندما يلامسه، ولا يدرك أن الخطورة تكمن في اليد التي تحركه، وهكذا اكتشفنا السلاح الأكيد الذي يقينا شرّ الأذى.

إنّ هذه الصورة المخزية تعكس حالة الوضع اللبناني-السوري، فأهل الحكم اليوم، بكبارهم وصغارهم، مع مؤسسات الدولة وأجهزتها، هم القضبان التي تحملها أيادي النظام السوري، وتضرب بها اللبنانيين، لتدفعهم إلى العراك في ما بينهم، وتبقى هي بمنأى عن المسؤولية والأذى.

وما نراه اليوم من صراعات بين السياسيين العاملين تحت السقف السوري، لا يتجاوز حدود اللعبة التي ارتضوا شروطها مسبقاً، وتقضي بعدم عضّ الأيدي التي تحمل القضبان. وإذا استنسخ البعض لعب دور القضيب في سياق معين، فإنّه قد سها عن باله بأنّه ملزّم بلعب دور الكلب في سياق آخر، بعد الانتهاء من عصره واستخراج عصيره، ولا يستطيع أي "معصور" الاعتراض، فحجم تورّطه كليل بإخراسه عند الاقتضاء، والفنادق في المزة والبرزة بانتظاره، وشاغلوها على استعداد لإخلائها من دون تعويض.

لاشكّ بأنّ الصورة مثيرة وجارحة ومغيظة، ولكنّها تعكس واقعاً أليماً نحن ملزمون بفضحه واستنكاره، حتى نتوقف اللعبة القذرة، ويستيقظ ذلك الطاقم السياسي الغارق في غيبوبة مصالحه، فيعود إلى رشده.

ولربّما كانت أول حقيقة يجب إدراكها، هي أنّ العبد الذي يُحقّره سيّده، ويكبت غيظه خوفاً منه، لا يحقّ له إطلاق انفعالاته المكبوتة باتجاه الآخرين، لتغطية شعورٍ بالنقص أو استرجاع هيبة مفقودة، بسبب الإبعاد عن موقع السلطة، فالذين نفّخهم المحنّل يُنقسم المحنّل.

وما نخشاه من استمرار هذا الوضع المجتمعي الخطير، هو أن تتحوّل هذه الطبقة من السياسيين إلى نماذج يقتدي بها الشعب اللبناني، فلا يتوجّه بعدئذٍ إلى جذور الشرّ لاقتلاعها، ويكتفي بمصارعة نتائجها فقط.

ومن الآن حتى تتبدّل الأدوار مرة أخرى، ويؤتى برزمة جديدة من القضبان، ستستمرّ المسرحية السمجة، ونرى الجميع يتوسّلون خلالها المخرج، للحصول على دور القضيب، ولكنّ وعي الشعب مع التحولات القادمة، سيجمّد كلّ واحدٍ في دوره الحالي، ويُرسَل بعدها الكلاب إلى الأقفاس، والقضبان إلى النار.